المحاضرة الرابعة نشأة الرواية

مرّت الرواية الغربية المعاصرة بمراحل كثيرة أسهمت في إخراجها إلى الشكل الّذي هب عليه الآن من تطور وروعة، حيث بدأ الأمر من قصص رومانس في العصور الوسطى* وقد كانت قصصًا مليئةً بالرومانسية بشكل مثالي

وهي نوع من الروايات النثرية شاعت في الأوساط الأرستقراطية في العصر الوسيط العالية وأوائل عصر النهضة، وفيه توصف عادة مغامرات فرسان السعي، الفرسان الأسطوريين الذين يتم تصويرهم على أنهم يتمتعون بصفات بطولية. ثم كان عصر النهضة الذي ظهرت روايات تحت تأثير الاتجاهات الثقافية والإيديولوجية والفكرية في القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ممثّلة نمطا معيّنا جيث كتبت بلغات عامية يتحدث بها عامّة الناس هي ما تسمى اللغة المبتذلة وليس بلغات مستفادة كاليونانية أو اللاتينية. ومن الأعمال الشهيرة في هذا العصر:

ديكاميرون: جيوفاني بوكاتشيو Giovanni Boccace 1313 – 1375. كتبت باللغة العاميّة لفلورانسا وهو عمل يروي

قصة 10 شبان (سبع سيدات وثلاثة رجال) أجبروا على التراجع إلى الريف في ضواحي فلورنسا ، للفرار من الطاعون الأسود الذي كان يضرب المدن الكبرى. وحتّى يرفّهوا عن أنفسهم اتفقوا على أن يسرد كل واحد منهم قصة كلّ ليلة ما عدا نهاية السبوع الذي خصّص للأعمال المنزلية والعبادة. فرووا 100 قصة في 10 ليال تنوّعت مواضيعها دينيّا وإثارة.

ثمّ يأتي عصر الباروك الذي يمتد من 1580 إلى 1750

يبدو أن المصطلح مشتق من كلمة «باروكو» التي يستخدمها علماء المنطق. أشار روسو إلى المصطلح الفلسفي باروكو المستخدم منذ القرن الثالث عشر لوصف أحد أنواع الحجج الأكاديمية المتقنة التي قد يعتبرها البعض معقدة أكثر من اللازم. يرتبط عادة بالكنيسة الكاثوليكية، التي قررت في مجلس ترينت أن الفنون يجب أن تنقل الموضوعات الدينية والمشاركة العاطفية المباشرة استجابة للإصلاح البروتستانتي. وتعرّفه المعاجم الغربية[1] بقولها:

باروك: يعني غير منتظم غريب ، غريب الأطوار. ويطلق على أسلوب تطوّر في أوروبا من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر يتميز بحرية أشكال. دعت إليه الكنائس الباروكية في بافاريا. الباروكة اليسوعية. هذا الأسلوب هو عكس الكلاسيكية. يتميّز بالحساسية المفرطة والخيال. وفيه صوّر الكتّاب الحياة على أنها معركة إن لم تكن فيها قويا فقد تخسر كل شيء، أو هي حلم يتلاشى فلا تغدو له أية علاقة بالواقع، أو هي كذبة وخدعةً زائلة. ولذلك صار الناس يواجهون الحياة بالشك تارة وباليقين تارة، بالحذر تارة وبالحرص تارة أخرى. أما عن لغةِ النصوص الأدبية الباروكية؛ فهي منمّقةٌ ومتكلّفة، يكابد الكاتب فيها عناء الوصف والمبالغة.

* تمتدّ العصور الوسطى من القرن الخامس الميلادي إلى القرن الخامس عسر.

[1] - Baroque: qui est d'une irrégularité bizarre biscornu, étrange, excentrique - Se dit d'un style qui s'est développé du 15eme au 18eme siècle caractérisé par la liberté des formes de la profusion des ornements. Les églises baroques de Bavière. Baroque jésuite. Ce style qui est à l'opposé de classicisme. Laisse libre cours à la sensibilité. La fantaisie … Le Robert : dictionnaire pratique de la langue française, p 146

فكانوا يكثرون استخدام الوصف والتمثيل والاستعارة، كما حرصوا على ملء أعمالهم بشتى أشكال المحسنات البديعية.
من أشهر الأجناس الأدبية في عصر الباروك؛ الرواية الطوباويّة: وهي من الطوبى وتعني المكان الخيالي القصيّ كما تعني الراحة والسعادة. والرواية الطوباويّة أشبه بـ "المدينة الفاضلة"، وهي فلسفة أو خطة خيالية لإصلاح المجتمعات التي يتخيلها الكاتب مجتمعاً مثالياً.
وقد ظهرت في هذه الفترة الرواية البيكاريسكية أو رواية الشطار التي ظهرت في الأدب الإسباني لروائي مجهول بعنوان (حياة لاثاريو دي طورميس وحظوظه ومحنه) والرواية البيكاريسكيّة فنّ يروي عادات الطبقات الدنيا وتقاليدها في المجتمع وتصوّر مغامرات الشطار ومحنهم ومخاطرهم. لذا غالبا ما يكتب بصياغة روائية سيرية واقعية، بضمير متكلم أو الغائب؛ لذلك تسمى بالرواية الأوطوبيوغرافية البيكاريسكية التي تؤكد مدى اعتماد الرواية على تصوير البعد الذاتي وتجسيد تقاطعه مع البعد الموضوعي. وتتخذ هذه الرواية صيغة هجائية انتقادية لقيم المجتمع وأعرافه، الموصوفة أحياناً بالزائفة المنحطة بطريقة تهكمية ساخرة، مندّدة بالاستبداد والظلم والفقر.

وفي هذه الفترة ظهر اسم قويّ وهو ميغيل دي سيرفانتس (1547 – 1616) الذي عاش في بداية عصر الباروك [استمر إلى ق 18م] وفرض شخصية انتقالية أنجبت جيلاً جديداً من الكتاب الإسبان. اعتنى بالرواية والمسرح وبالشعر غير أنّه لم ينجح إلا في الرواية التي كانت موهبته فيها كبيرة وقد تقلب بين الحركتين الواقعية والمثالية وفي كثيرٍ من الأحيان بقصد أخلاقي بحت.

فقد كان للرواية "الباروكيّة سحرها، هو سحر الحريّة، المخيلة المحض، في أبعاد الحقيقة والواقع، وهي تدين بهذه المجانيّة الكاملة لكونها ولدت يتيمة دون نصير أو حماية، فهي لم تكن تستفيد من أي من تلك التقاليد أو المصطلحات أو محاكاة الأقدمين مما يسم الأنواع الأدبية الأخرى: فقد قال عنها ألبير تيبوده في كتابة تأملات في الرواية : إنّ الرواية لا تكاد ترتبط بشيء من العالم الكلاسيكي، فهي تقيم في أرض جدودها كالهندسة القوطية إنّها رواية" [2] وهذا يعني أن الرواية الباروكيّة انطلقت من الصفر فهي الرواية بلا صفات، حكاية متخيّلة حتّى التقزّز. مغريّة وخياليّة حتّى التحمة، المخيلة الحرةّ.

تعدّ رواية دون كيشوت التي طبع جزأها الأول عام 1605 وجزأها الثاني 1615 أولى الروايات الفنيّة على المستوى الدولي

بطل الرواية هو ألونسو كيكسانو، رجل طويل القامة وهزيل البنية ناهز الخمسين عاماً،صاحب مزرعة، له ما يكفيه من المال وما يغنيه عن العمل، يقضي وقته في قراءة الكتب التي تتحدث عن الفروسيّة والفرسان، وبخاصّة فرسان العصور الوسطى الذين يركبون الخيل ويذبحون التنانين، ويقبلون أيادي الأميرات، كان (ألونسو) يقضى أيامه من الصبح إلى الليل ومن الليل إلى الصبح" في قراءة أدب الفروسية، حتى إنه كان يبيع قطعاً من أرضه ليشتري بها كتباً عن الفروسية، وقد انتهى به هذا الهوس الشديد بالفروسية إلى فقدانه لصوابه وخلطه بين أوهامه والواقع. وبلغ به الهوس إلى الحد الذي قرّر فيه استعادة أمجاد الفرسان الجوالين ليقوم

[2]

بمحاكاة سيرهم في نشر العدل ومساعدة المستضعفين والدفاع عنهم، فقال محدّثا نفسه: (لقد وُلدت في هذا العصر الحديدي لكي أبعث العصرَ الذهبي)

جهّز (الدون) نفسه (سلاح قديم متهالك خلّفه له أجداده الغابرين فأصلح فيه ما استطاع، ثم لبس درعاً وخوذة وحمل معه سيفاً ورمحاً وامتطى صهوة جواد أعجف هزيل فيه من الأسقام والأوجاع أكثر مما كان فيه من الأعضاء السليمة، كان كل ما تبقى منه هو الجلد والعظام وحسب زمع ذلك كان يراه فريدا لا مثيل له لا يبدّله بجواد السكندر وظل أربعة أيام يفكّر ليختار له اسما روثينانته) وأطلق على نفسه (دون كيشوت)، وامتطى فرسه ,وأخذ معه مرافقا (سانتشو) الفلاح البسيط الذي كان ضخم الجثة وقصير القامة بعكسه هو.

كان يشعر أنه كلما تأخر في خروجه كلما ازدادت المظالم وتراكم عناء البشرية وشقاؤها، وهو ما كان يثقل كاهله ويشعره بتأنيب ضمير، أولم يكن بمقدوره -وهو الفارس المغوار- أن ينهي عذابات البشرية ويضع حداً للمظالم لولا تراخيه وتكاسله؟ وخرجا مع مرافقه إلى القرى والأرياف بحثاً عن المغامرات، ولأنّ التنانين والعمالقة لا وجود لها إلّا في رأسه، تخيّل طواحين الهواء أعداء ووحوشا عملاقة، وحين رأى الناس جنون دون كيشوت رغبوا في علاجه، ورسموا لذلك مخططات لجعله يعود إلى سريره، و علم - في نهاية القصة - أنّه كان غبيّا لا فائدة مما يفعل، ولكن فات الأوان فقد أُصيب بحمّى شديدة مات على إثرها وهو على سريره.

عمل ديكارت جاهدا على صياغة تصوّر للإنسان الجديد من خلال الكوجيطو/ الذات العقلانية المجسّدة في أنا أفكر إذن أنا موجود والتي أفرزت صياغة جديدة تقوم على اعتبار أن الوعي والعقل هو أساس الوجود. كما نجد جون لوك في كتابيه (الفهم الإنساني) والآخر (عن العقل البشري)، اللذيْن خصصهما للرد على ديكارت غير أنّ الجدال بينهما لم يكن حول قدرة العقل على الوصول إلى الحقيقة، فهذا النقاش قد بات محسوماً اليوم، وإنّما كان حول المنهجيات التي ينبغي اعتمادها للوصول إلى الحقيقة، المنهج (التجريبي/الاستقرائي) كما يذهب لوك، أم المنهج (العقلي/الاستنباطي) كما يتبناه ديكارت. في هذا الجو الفكريّ الذي يحاول تطبيق المناهج الحديثة في فهم الظواهر المختلفة ظهر أديب إسبانيا (سرفانتاس) الذي كان يفكر في صياغة شخصيته التي ستجسد في اندفاعاتها العاطفية وتخييلاتها وتوهماتها غير العقلانية وهوسها بأدب الفروسية وأخلاقه البائدة، القطيعة المعرفية مع الماضي وتصوراته الغيبية القديمة للعالم كما كان في عصر التنوير؛ بشخصية لا تزال تتمثل العالم بصورته السحرية غير العقلانية.

"دون كيشوت" الذي به تمّ ميلاد فن الرواية الحديثة، التي كانت علامة فارقة في تاريخ تطور السرد الروائي من جهة، وعلامة على النقلة المعرفية التي حدثت في تلك الحقبة والقطيعة بين الزمن التقليدي بكل منجزاته الثقافية والفكرية والأدبية، والولوج إلى الزمن الحديث.

وما يثبت عالميّة الرواية أنّها ما تزال في مجال اهتمام الباحثين والمبدعين مثل ما فعل دوستويفسكي من شخصية دون كيشوت معالم شخصيته الطيبة ذات المشاعر المتدفقة، والحساسية العالية تجاه الخير والعدل والقيم النبيلة التي كرس نفسه لنشرها في هذا العالم

الموحش، التي صنع بها شخصية الأمير (ليون نيكولايفيتش ميشكين) في رواية الأبله والذي كان يطرب حين يناديه أحد باسم (الفارس الفقير) في إشارة إلى دون كيشوت. وقد كان دوستويفسكي مسكونًا بشخصية دون كيشوت، حتّى قال عن الرواية "في العالم كلِّه لا يوجد مؤلَّف أعمق وأقوى من هذا، هذه هي الكلمة الأخيرة والأسمى للفكر الإنساني، إنها أكثر أنواع السخرية التي يمكن للإنسان التعبير عنها مرارةً وإذا انتهت الحياة على الأرض، وسُئل البشر هناك في مكانٍ ما: ماذا! هل فهمتم حياتكم على الأرض؟ وما الذي استخلصتموه منها؟، فيمكن للإنسان تقديم دون كيشوت في صمت: هذه هي خلاصة حياتي، فهل يمكن لكم إدانتي عليها؟"

ويرى الباحثون أننا لا نكاد نعثر في ثقافة اليوم عملا تغيب فيه شخصية دون كيشوت لما تمثله من أسلوب/نمط في الرؤية إلى العالم وتمثّله، فكل إنسان مهما بلغت عقلانيته وموضوعيته في التعاطي مع الواقع؛ فإنه يظل يحلم بعالم موازٍ عالم مثالي تتطابق فيه تصوراته وأحلامه الذاتية مع العالم الخارجي وهو ما دأب دون كيشوت على فعله.

وقد تناوله الشعراء العرب المعاصرون في أعمالهم الشعريّة بدلالات مختلفة مثل ما فعل الشاعر العراقي وليد الصراف الذي جعل منه رمزا يدل على الفوات والغفلة من خلاله قوله:

جاء المغول و"دون كيشوت" منتفضاً ** ما زال يضرب أعناق الطواحين.

بينما يجعله الشاعر السوري ممدوح عدوان في قصيدته (رحلة دون كيشوت الأخيرة) رمزا/بطلا يحمل جذوة الحق في روحه، ويقرر مواجهة العالم المتداعي والبارد/القاحل وحيداً حتى النهاية، رغم كل أحزانه في المنفى وهزالة جسده وتقوس ظهره ووجهه الشاحب؛ لكنه مع ذلك يبقى الفارس الأخير لهذا العالم.

وضع عبد الرحمن بدوي دون كيشوت ضمن مصاف روائع الأدب العالمي؛ وصنّفها ضمن أربع روايات عالميّة فقال: إن "روائع الأدب العالمي أربع هي الإلياذة لهوميروس، والكوميديا الإلهية لدانتي، ودون كيشوت لسرفانتس، وفاوست لغوته".